الثبات عند البلاء (٢)

الصبر والأخذ بالأسباب

عباد الله مازلنا مع هذا الموضوع الهام، موضوع البلاء، هذا الأمر الذي جعله الله سنة كونية لعباده، بلاء في الشر، وبلاء في الخير، قال تعالى: ﴿ **وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾** ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقد تكلمنا في الخطبة الماضية عن البلاء، وهو اختبار الله لعبده، وغايته هو التمحيص والتمييز، والتكفير، ورفع الدرجات.

والبلاء يكون في النفس، وفي الزوجة، وفي الأهل ... إلخ، وقلنا: إن واجب العبد أمام البلاء هو التوكل والصبر، ثم الأخذ بالأسباب لرفع البلاء أو تخفيفه، وقد تكلمنا في الخطبة الماضية عن التوكل، ونتكلم في هذه الخطبة عن الصبر.

الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب، وعاقبة الصبر في القرآن حميدة، فالجزاء البشرى، والمعية في كنف الله، وحب الله للعبد، والدرجات العلى والإمامة في الدين.

وعلمنا أن أشد الناس بلاءً هم الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، ولهذا وجدنا أن الأنبياء ابتلوا وصبروا، ثم علمنا أن من مواطن البلاء المرض، وكذلك موت الأحباب وخصوصًا الأبناء.

فعَنْ أَبِي حَسَّانَ، قَالَ: (**قُلْتُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّهُ قَدْ مَاتَ لِيَ ابْنَانِ، فَمَا أَنْتَ مُحَدِّثِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحَدِيثٍ تُطَيِّبُ بِهِ أَنْفُسَنَا عَنْ مَوْتَانَا؟ قَالَ: قَالَ: نَعَمْ، صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ**[١] **الْجَنَّةِ يَتَلَقَّى أَحَدُهُمْ أَبَاهُ، أَوَ قَالَ: أَبَوَيْهِ فَيَأْخُذُ بِثَوْبِهِ، أَوَ قَالَ: بِيَدِهِ كَمَا آخُذُ أَنَا بِصَنِفَةِ ثَوْبِكَ هَذَا فَلَا يَتَنَاهَى، أَوَ قَالَ: فَلَا يَنْتَهِي حَتَّى يُدْخِلَهُ اللَّهُ وَأَبَاهُ الْجَنَّةَ**)[٢]، وهذا لو احتسب، واتقى الله، ورضي بما قسمه الله تعالى.

---

[١] قال الإمام النووي رحمه الله (١٦/١٨٢): (صِغَارهمْ دَعَامِيص الْجَنَّة): وَاحِدهمْ (دُعْمُوص) بِضَمِّ الدَّال أَيْ صِغَار أَهْلهَا، وَأَصْل الدُّعْمُوص دُوَيْبَة تَكُون فِي الْمَاء لَا تُفَارِقهُ، أَيْ أَنَّ هَذَا الصَّغِير فِي الْجَنَّة لَا يُفَارِقهَا.

[٢] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٦٣٥).

ومن ذلك قصة أم سليم وزوجها أبو طلحة رضي الله عنهما عند موت ابنهما، فلما مات الطفل لم تخبر أم سليم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا زوجها إلا بعد أن تزينت له: (**فَتَعَشَّى ثُمَّ أَصَابَ مِنْهَا، فَلَمَّا فَرَغَ، قَالَتْ: وَارُوا الصَّبِيَّ**)[1]، انظروا إلى قوة الصبر والاحتساب حتى قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُبَارِكَ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ: فَرَأَيْتُ لَهُمَا تِسْعَةَ أَوْلَادٍ كُلُّهُمْ قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ**)[2].

وإذا بكى الشخص لفراق أخيه فهذا لا ينافي الصبر، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: (**أَرْسَلَتِ ابْنَةُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِ إِنَّ ابْنًا لِي قُبِضَ فَأْتِنَا، فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لَيَأْتِيَنَّهَا، فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأُبَيُّ ابْنُ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بْن ثَابِتٍ وَرِجَالٌ، فَرُفِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَتَقَعْقَعُ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**)[3].

ومراتب الناس مع الصبر:

١. سخط بالقلب، واللسان، والجوارح، وهذا أدناهم.

٢. الصبر على المصيبة ولكنه كاره.

٣. الرضا وانشراح الصدر، ويعلم قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ**﴾ [البقرة: ١٨٥]، فيرضى، ويعلم أنه رُبَّ فشل أعقبه نجاح، ومرض أعقبه عافية.

٤. الشكر (الحمد لله على كل حال).

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٥٤٧٠)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢١٤٤).

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (١٣٠١).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (١٢٨٤)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٩٢٣).

فإذا ابتلاك الله ببلاء؛ فاعلم: أن هذا الابتلاء من عند الله لحكمة جليلة، وهي الرجوع إلى الله؛ إذ إن الابتلاء قد يكون بسبب معصية أو تقصير عندك، ﴿ **ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾** ﴾ [الروم: ٤١]، فتوكل على الله واستعن به في كشف الكرب، واصبر على معالجة الخلل، وخذ بالأسباب الممكنة لرفع البلاء، يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾[الرعد: ١١] فـ (ما) الأولى هي العقوبة، (ما) الثانية المخالفة.

وهكذا أيها الإخوة المسلمون عباد الله ذكرنا أن العبد مع البلاء في ثلاث عبادات، التوكل، والصبر، والثالثة **الأخذ بالأسباب**:

فالأخذ بالأسباب هو عين التوكل؛ لأن ذلك يعني احترامك للسنة الكونية التي شرعها الله تعالى، وإذا تركتها؛ فمثلك كمثل الذي قيل له: افتح هذا القدر لتأكل، فأخذ يجلس وينتظر أن يُفتح القدر بنفسه.

والناس مع الأسباب طرفان والمنضبط وسطهما، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (**قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ قَالَ: اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**)[1]، بهذا الفهم نستطيع أن نفهم قوله ﷺ: (**لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ**)[2] مع قوله ﷺ: (**وَفِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ**)[3]، فعلى الإنسان أن يتحفظ، ويتقي المرض، ويأخذ بالأسباب وبأساليب الوقاية مع اعتقاد بأنه لا عدوى بمفردها، فليس كون هذا المريض عنده مرض معدي أن العدوى تنتقل بدون إذن الله سبحانه وتعالى، فكم من أناس لم تنتقل لهم

---

[1] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (٢٥١٧)، وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٢٥١٧).

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٥٧٥٦)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٢٢٢).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٥٧٠٧).

العدوى، إذن فمجموع الحديثين يبين أنك تأخذ بأسباب الوقاية وأنت تعلم أن كل شيء بأمر الله، فلا يترك أحد الأسباب ثم يقول: أنا متوكل على الله، فهو كالذي يترك الدواء، فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ قَالَ: (**قَالَتْ الْأَعْرَابُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَتَدَاوَى؟ قَالَ: نَعَمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً، أَوْ قَالَ: دَوَاءً، إِلَّا دَاءً وَاحِدًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُوَ؟ قَالَ: الْهَرَمُ**)[1].

وفي الحديث الذي رواه عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ؛ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**)[2]، ففي الصباح تكون جائعة فتخرج للبحث عن الرزق فترجع شبعانة، فعلينا إذن أن نأخذ بالأسباب، وهذا هو الوسط، فلا إفراط ولا تفريط.

وصنف من الناس مفرط في الأخذ بالأسباب، **وهم المتواكلون**: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (**كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ؛ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾** [البقرة: ١٩٧])[3].

ويقول سهل بن التستري: (**مَنْ طَعَنَ فِي التَّوَكُّلِ؛ فَقَدْ طَعَنَ فِي الْإِيمَانِ، وَمَنْ طَعَنَ فِي التَّكَسُّبِ؛ فَقَدْ طَعَنَ فِي السُّنَّةِ**)[4].

والصنف الأخير، **وهو يفرط في الأخذ بالأسباب فقط دون توكل على الله، أو يأخذ بأسباب ليست في الحقيقة أسبابًا:**

فلابد وأن نعلم أنه ليس كل سبب يؤخذ به؛ لأن السبب النافع الشرعي هو ما جعله الله

---

[1] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (٢٠٣٨)، وصححه الألباني رحمه الله في سنن الترمذي (٢٠٣٨).

[2] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (٢٣٤٤)، وصححه الألباني رحمه الله في سنن الترمذي (٢٣٤٤).

[3] رواه البخاري رحمه الله رحمه الله في صحيحه (١٥٢٣).

[4] حلية الأولياء (١٠/١٩٥)، لأبي نعيم رحمه الله.

سببًا شرعيًا أو قدريًا، فمثلًا قراءة القرآن على المريض أو الدعاء له من الأسباب الشرعية، والأدوية من الأسباب الحسية القدرية التي نعلم أنها نافعة، وكذلك من أسباب رفع الأثقال إلى السيارة مساعدة الرجال معك، أو بناء عمارة عن طريق مهندسين، أما أن يأتي إنسان ويأخذ بسببٍ ليس هو سببا حسًا ولا شرعًا؛ فقد أوقع نفسه في المعصية، كالذي يضع شيئا في فتحة قميصه لئلا يُسرق أو يلبس شيئا في رقبته للشفاء.

وبعد هذا عباد الله يحتاج السائر إلى الله تعالى إلى أمور تخفف من ثقل البلاء حتى يجد قلبه مفتوحًا منشرحًا للصبر والاحتساب:

١. **إذا ابتلاك ربك فهو يحبك:** ومحبة الله لك أمر عظيم، أمر يزيدك فخرًا، قال النبي ﷺ: (**إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ قَوْمًا؛ ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ صَبَرَ؛ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزِعَ؛ فَلَهُ الْجَزَعُ**)[1].

٢. **ملاحظة حسن الجزاء:** فلو قال لك رجل مثلًا ستعمل عملا شاقا ثم أعطيك مليون جنيه، بالطبع انتظارك للمال سيخفف عليك أثر العمل الشاق، ولله المثل الأعلى، فلك أن تتخيل أن الله يبتليك ويقول لك: ثمن هذا البلاء هو الجنة، لا شك أن حلاوة الأجر ستنسيك مرارة البلاء.

٣. **انتظار الفرج:** لأنك رضيت بقضاء الله، فانتظارك للفرج يهون عليك.

٤. **تهوين البلية:** بأن تحمد الله على أن البلاء في الدنيا وليس في الآخرة.

٥. **سماع سير أهل البلاء:** فإن ذلك يخفف عليك.

[1] أخرجه البيهقي رحمه في شعب الإيمان (٩٣٢٧)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٧٠٦).

سيدنا **أيوب** إذا ذكر؛ ذكر الصبر، (**قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ وَالتَّارِيخِ وَغَيْرُهُمْ: كَانَ أَيُّوبُ رَجُلًا كَثِيرَ الْمَالِ مِنْ سَائِرِ صُنُوفِهِ وَأَنْوَاعِهِ؛ مِنَ الْأَنْعَامِ، وَالْعَبِيدِ، وَالْمَوَاشِي، وَالْأَرَاضِي الْمُتَّسِعَةِ بِأَرْضِ الْبَثْنِيَّةِ مِنْ أَرْضِ حُورَانَ، وَحَكَى ابْنُ عَسَاكِرَ: أَنَّهَا كُلَّهَا كَانَتْ لَهُ، وَكَانَ لَهُ أَوْلَادٌ وَأَهْلُونَ كَثِيرٌ، فَسُلِبَ مِنْ ذَلِكَ جَمِيعِهِ، وَابْتُلِيَ فِي جَسَدِهِ بِأَنْوَاعِ الْبَلَاءِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ عُضْوٌ سَلِيمٌ سِوَى قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ يَذْكُرُ اللَّهَ عَجَّلَ بِهِمَا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ ذَاكِرٌ لِلَّهِ عَجَّلَ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَصَبَاحِهِ وَمَسَائِهِ، وَطَالَ مَرَضُهُ حَتَّى عَافَهُ الْجَلِيسُ، وَأَوْحَشَ مِنْهُ الْأَنِيسُ، وَأُخْرِجَ مِنْ بَلَدِهِ وَأُلْقِيَ عَلَى مَزْبَلَةٍ خَارِجَهَا، وَانْقَطَعَ عَنْهُ النَّاسُ، وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ يَحْنُو عَلَيْهِ سِوَى زَوْجَتِهِ كَانَتْ تَرْعَى لَهُ حَقَّهُ، وَتَعْرِفُ قَدِيمَ إِحْسَانِهِ إِلَيْهَا وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهَا، فَكَانَتْ تَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ فَتُصْلِحُ مِنْ شَأْنِهِ، وَتُعِينُهُ عَلَى قَضَاءِ حَاجَتِهِ وَتَقُومُ بِمَصْلَحَتِهِ، وَضَعُفَ حَالُهَا، وَقَلَّ مَالُهَا حَتَّى كَانَتْ تَخْدِمُ النَّاسَ بِالْأَجْرِ لِتُطْعِمَهُ، وَتَقُومَ بِأَوَدِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا وَهِيَ صَابِرَةٌ مَعَهُ عَلَى مَا حَلَّ بِهِمَا مِنْ فِرَاقِ الْمَالِ وَالْوَلَدِ، وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا مِنَ الْمُصِيبَةِ بِالزَّوْجِ، وَضِيقِ ذَاتِ الْيَدِ، وَخِدْمَةِ النَّاسِ بَعْدَ السَّعَادَةِ، وَالنِّعْمَةِ، وَالْخِدْمَةِ، وَالْحُرْمَةِ، وَلَمْ يَزِدْ هَذَا كُلُّهُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا صَبْرًا وَاحْتِسَابًا، وَحَمْدًا وَشُكْرًا**)[1]، وروى أنس بن مالك رضي الله عنه: (**أَنَّ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ابْتُلِيَ فَلَبِثَ فِي بَلَائِهِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً**)[2]، وظل هكذا صابرًا حتى ابتلاه بشماتة الأعداء، وتلك أخطر وأشد من البلاء، فرفع أيوب يده وقال مناديًا ربه: ﴿ **أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣** ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فانظر إلى حسن الأدب في دعاء أيوب صلى الله عليه وسلم، لم يسأله الشفاء، أو العافية، أو

---

[1] البداية والنهاية (١/٢٢١)، لابن كثير رحمه الله.

[2] فتح الباري (٦/٤٢١)، لابن حجر رحمه الله.

أن يعيد أهله، وماله، وولده، بل اكتفى بأن ذَكَر نفسه بالحاجة والضعف، فانظر إلى حلاوة العاقبة انظر إلى المنحة بعد المحنة: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[ص: ٤٤]، ليس هناك أشرف من العبودية، ولذلك قال عنه الله تعالى: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾.

وها هو سيدنا إبراهيم ﷺ دعا ملكًا من ملوك الدنيا إلى التوحيد وهو النمرود، فما كان منه ومن قومه إلا أن قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فجمعوا حطبًا كثيرًا وأضرموه نارًا، فكان لها شرر عظيم، فلما ألقوه في النار قال إبراهيم: (**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**)[1]، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾[آل عمران: ١٧٣].

(سُبْحَانَ مَنْ أَخْرَجَ هَذَا السَّيِّدَ مِنْ آزَرَ ... ثم أعانه بالتوفيق فقصد وآزر

ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِ الْبَيَانَ فَأَعَانَ وَوَازَرَ ... فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ قَدْ رَحَلَ عَنِ الْمِنْجَنِيقِ وَسَافَرَ

وَلَمْ يتزود إِلا التَّسْلِيمَ ... ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾

عَبْدٌ بَذَلَ نَفْسَهُ لَنَا فَبَلَّغْنَاهُ مِنَّا الْمُنَى ... وَعَرَّفْنَاهُ الْمَنَاسِكَ عِنْدَ الْبَيْتِ وَمِنًى

وَلَمَّا رُمِيَ فِي النَّارِ لأَجْلِنَا قُلْنَا لَهُ بِلِسَانِ التَّفْهِيمِ ... ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾)[2]

وتذكر سيدنا إسماعيل ﷺ لما قال له أبوه بعد أن شب: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤٥٦٣).

[2] التبصرة (١/١٢٣)، لابن الجوزي رحمه الله.

﴿أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: ١٠٢]، فالذي جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم هو الذي جعل السكين بردًا وسلامًا على إسماعيل.

وها هو يعقوب ﷺ صبر وتحمل بفقدان ابنه الذي أُتي بقميصه ملطخا بالدماء، فقال: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، فاشتد به الحزن والألم، وأخذ منه الأسف مأخذه، فاشتكى إلى الله ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ [يوسف: ٨٦]، ثم فرج الله عليه، وكذلك سيدنا يوسف ﷺ صبر على السجن، والشهوة، وإخوته، وكيد النسوة، ثم جمع الله بينه وبين أبيه وإخوته، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف: ٩٠].

قول الصالحين في الصبر:

قال الثوري: عن بعض الصحابة رضي الله عنهم: (**مِنَ الصَّبْرِ أَنْ لَا تُحَدِّثَ بِمَا يُوجِعُكَ وَلَا بِمُصِيبَتِكَ، وَلَا تُزَكِّي نَفْسَكَ**)[١].

وَسُئِلَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (**أَيُّمَا أَفْضَلُ لِلرَّجُلِ، أَنْ يُمَكَّنَ أَوْ يُبْتَلَى؟ فَقَالَ: لَا يُمَكَّنُ حَتَّى يُبْتَلَى**)[٢].

وقال ذو النون: (**الصَّبْرُ: التَّبَاعُدُ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ، وَالسُّكُونُ عِنْدَ تَجَرُّعِ غُصَصِ الْبَلِيَّةِ، وَإِظْهَارُ الْغِنَى مَعَ حُلُولِ الْفَقْرِ بِسَاحَاتِ الْمَعِيشَةِ**)[٣].

---

[١] الدر المنثور (٥١٤/٤)، للسيوطي رحمه الله.

[٢] زاد المعاد (١٣/٣)، لابن القيم رحمه الله.

[٣] مدارج السالكين (١٥٧/٢)، لابن القيم رحمه الله.

وعَنْ يُونُسَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: (سَأَلْتُ رَبِيعَةَ بْنَ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ: مَا مُنْتَهَى الصَّبْرِ؟ قَالَ: أَنْ يَكُونَ يَوْمَ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ مَثْلَهُ قَبْلَ أَنْ تُصِيبَهُ)[1].

قال ابن القيم: (الْجَاهِل يشكو الله إِلَى النَّاس وَهَذَا غَايَة الْجَهْل بالمشكو والمشكو إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَو عرف ربه؛ لما شكاه، وَلَو عرف النَّاس؛ لما شكا إِلَيْهِم)[2].

نعم عباد الله، وفي هذا يقول ﷺ: (مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ، فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ، لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ، أَوْشَكَ اللَّهُ لَهُ، بِالْغِنَى، إِمَّا بِمَوْتٍ عَاجِلٍ، أَوْ غِنًى عَاجِلٍ)[3].

ويقول ابن تيمية: (وَاَللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ الْهَجْرَ الْجَمِيلَ، والصَّفْحَ الْجَمِيلَ، والصَّبْرَ الْجَمِيلَ، وَقَدْ قِيلَ: إنَّ الْهَجْرَ الْجَمِيلَ هُوَ هَجْرٌ بِلَا أَذًى، وَالصَّفْحَ الْجَمِيلَ صَفْحٌ بِلَا مُعَاتَبَةٍ، وَالصَّبْرَ الْجَمِيلَ صَبْرٌ بِغَيْرِ شَكْوَى إلَى الْمَخْلُوقِ؛ وَلِهَذَا قُرِئَ عَلَى أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ فِي مَرَضِهِ أَنَّ طاوسا كَانَ يَكْرَهُ أَنِينَ الْمَرِيضِ، وَيَقُولُ: إنَّهُ شَكْوَى، فَمَا أَنَّ أَحْمَد حَتَّى مَاتَ)[4].

وقال الفيروزآبادي: (اختبار الله تعالى لعباده تارة بالمسارّ ليشكروا، وتارة بالمضارّ ليصبروا، فصار المِنحة والمحنة جميعاً بلاءً، فالمِحْنة مقتَضِية للصّبر، والمِنحة مقتضية للشكر، والقيامُ بحقوق الصّبر أَيسر من القيام بحقوق الشكر، فصارت المِنْحة أَعظم البلاءَين؛ لهذا قال عمر رضي الله عنه: بُلينا بالضَّرّاءِ فصبرنا، وبلينا بالسَّراءِ فلم نصبر، وقال عليّ رضي الله عنه: من وُسّع عليه دنياه، فلم يعلم أَنه قد مُكِر به؛ فهو مخدوع عن عقله، قال تعالى ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾

[1] حلية الأولياء (٣/٢٦١)، لأبي نعيم رحمه الله.

[2] الفوائد (٨٧)، لابن القيم رحمه الله.

[3] أخرجه أبو داود رحمه الله في سننه (١٦٤٥)، وصححه الألباني رحمه الله في سنن أبي داود (١٦٤٥).

[4] مجموع الفتاوى (١٠/١٨٣)، لابن تيمية رحمه الله.

[الأنبياء: ٣٥])[1].

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: (**إِنِّي قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فَوَجَدْتُ صِفَةَ سُلَيْمَانَ مَعَ الْعَافِيَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا:** ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ [ص: ٣٠]، **وَوَجَدْتُ صِفَةَ أَيُّوبَ مَعَ الْبَلَاءِ الَّذِي كَانَ فِيهِ** ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٤٤﴾ [ص: ٤٤]، **فَاسْتَوَتِ الصِّفَتَانِ وَهَذَا مُعَافًى وَهَذَا مُبْتَلًى، فَوَجَدْتُ الشُّكْرَ قَدْ قَامَ مَقَامَ الصَّبْرِ، فَلَمَّا اعْتَدَلَا كَانَتِ الْعَافِيَةُ مَعَ الشُّكْرِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْبَلَاءِ مَعَ الصَّبْرِ**)[2].

قال ابن القيم: (**وَيُحْكَى عَنِ امْرَأَةٍ مِنَ الْعَابِدَاتِ أَنَّهَا عَثَرَتْ، فَانْقَطَعَتْ إِصْبَعُهَا، فَضَحِكَتْ، فَقَالَ لَهَا بَعْضُ مَنْ مَعَهَا: أَتَضْحَكِينَ وَقَدِ انْقَطَعَتْ إِصْبَعُكِ؟! فَقَالَتْ: أُخَاطِبُكَ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ، حَلَاوَةُ أَجْرِهَا أَنْسَتْنِي مَرَارَةَ ذِكْرِهَا**)[3].

فعلى العبد أن يجتهد في هذه النصائح النبوية لتحصيل الآخرة، فلا يصرف جُل وقته فيما ضمن الله له، يقول ابن عطاء السكندري رحمه الله: (**اجْتِهَادُك فِيمَا ضُمِنَ لَك وَتَقْصِيرُك فِيمَا طُلِبَ مِنْك دَلِيلٌ عَلَى انْطِمَاسِ بَصِيرَتِك**)[4].

---

[1] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢/٢٧٥)، للفيروزآبادي رحمه الله.

[2] حلية الأولياء (٧/٢٨٣)، لأبي نعيم رحمه الله.

[3] مدارج السالكين (٢/١٦٧)، لابن القيم رحمه الله.

[4] بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية (٣/٨٧)، لأبي سعيد الخادمي الحنفي.